



المكتبة الصغيرة

جبل طارق والعرب..

عبد العزيز الرفاعي

المكتبة الصغيرة



جبل طارق والعرب..

عبد العزيز الرفاعي

« .. وجبل طارق هـــذا كريم التربة ، عظيم المنعــة ، باسق مع عنـــان السماء ، يكاد فى المامته يصل الى الجـــوزاء ، كل ما استودع فى أرضه نما وزكا وفضــل ، وجل وأثمر .. »

ابن صاحب الصلاة

وأقود قد ألقى عــلى البحـــر متنه
فأصبح عن قود الجبــــال بمعزل
يعــرّض نحو الافق وجهـــا كأنما
تراقب عينـــاه كـــواكب مـنزل

مطرف « شاعر غرناطة »

الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ
١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله .. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد ، فهذا البحث القصير عن « جبل طارق والعرب » كنت نشرته في مجلة «قافلة الزيت».. ثم رأيت أن أنشره ضمن ما أنشر من هذه «المكتبة الصغيرة» ، التي أرمي من ورائها إلى تيسير المعرفة ، في عرض موجز ، يكفل الإفادة ، ولا يورث الملل .. ولعلها أدنى إلى روح العصر العاجل ..

والبحث عن علاقة العرب بجبل طارق ، يمثل جانباً من بحث أوسع عُنيت به ، يتناول المناطق التي اتخذ منها الفتح الإسلامي نقط دفاع أو انطلاق إلى العالم الواسع الذي حمل

إليه المسلمون رسالة الدعوة الإسلامية . . وقد أصبحت هذه المناطق فيما بعد ، أو على الأدق أصبح الكثير منها ، قواعد الإمبراطورية البريطانية التي اتخذتها للمحافظة على سلامة مستعمراتهـــا فيمـــا وراء البحار .. أو هي بعض ما عُـــرف بالمراكز الاستراتيجية .

على أن جبل طارق ، وان مثّل نقطة انطلاق الفتح العربي الإسلامي إلى الأندلس . . فقـــد مثـــل من جانب حضاري ، البوابة الرئيسيـــة الكبرى التي التقى فيها الشرق بالغرب .. نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية ، بكل إشراقاتها الروحية والفكرية ، حيث قعدت أوروبا هناك مقعد التلميذ من الأساتذة المسلمين ، فنقلت عنهم الطب والفلك والفلسفة وغيرهـــا من العلوم ، وفتحوا أمامها آفاقاً جديدة من العلم والمعرفة . .

والبحث الذي أقدمه اليوم عن جبل طارق إنما هو بحث تاريخي مجرد .. يقتصر حديثـــه عن علاقة العرب من الوجهة التاريخية ، بهـــذا

الجبل ، وعن دورهم الحضاري فيه . . وهـــو لا يتجاوز هذا المضمار المحدود ، إلا فيما يقتضيه السياق إتماماً للفائدة التاريخية ليس غير .

وبعد .. فمن الله ، عزت قدرته ، أستمد العون ، وأسأله التوفيق .

عبد العزيز الرفاعى

الطائف ٢٠ ـ ٤ ـ ١٣٨٩



كلمة عن الطبعـــة الثالثـة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسوله الأمـــين .

وبعد ، فهذه الطبعة الثالثة من هذه الرسالة ، أقدمها للقراء ، بعد أن أدخلت فيها شيئاً من التعديلات والإضافات خاصة بعد ان اتيح لي ان ازور جبل طارق في صيف عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ ، وقد مهّد لي السبيل اليه من طنجة الصديق العزيز الاستاذ أحمد حياة مدير بنك المغرب في طنجة واني لأرجو ان يتاح لى ان أعاود طبع هذا الكتيب بنحو أوفى واكمل .

عبد العزيز الرفاعي

الطائف غرة جمادى الاخرة١٣٩٣ هـ

قصة الأسم

منذ الفتح الإسلامي للأندلس ، اقترن اسم جبل طارق باسم فاتحه القائد المسلم طارق بن زياد ، مولى موسى بن نصير (١٩ – ٩٧ هـ) أحد قادة الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان

وقد ظلّ الجبل محتفظاً بهذا الاسم إلى الوقت الحاضر فهو في الإنجليزية (Gibraltar)

أما في الأزمنة القديمة فقد تداولته عدة أسماء ، بيد أنه كان قبيل الفتح الإسلامي يعرف بجبل كالبي (Mount's Calpe)

ولقد حاول الخليفة الموحّدي ، عبد المؤمن بن علي أن يطلق اسماً جديداً على الجبل ، أو المدينة التي ابتناها به، فأمر بتسميته « بجبل الفتح » أو « مدينة الفتح » (سنة ٥٥٥ هـ – ١١٦٠ م) ، إلا أن إسم جبل طارق ظل غالباً وان اقترن اسم « جبل الفتح » في المؤلفات العربية التالية للعهد الموحدي بشيء من الذيوع .

وقد شمل اسم جبل طارق ، المضيق الذي تقع الصخرة على شواطئه الشمالية فأطلق عليه أيضاً اسم مضيق جبل طارق وقد كان العرب يسمونه « الزقاق » أو« المجاز » أو « معبرة هرقل » أو « معبرة الأسد » ، وهذه التسمية الأخيرة ، ربما كانت ذات علاقة بما يوحي به المنظر العام للصخرة ، فقد قال الأستاذ محمد عبد الله عنان ، يصفها في كتابه ، « الآثار الأندلسية الباقية » : (إن الجبل أو الصخرة تربض في البحر على شكل أسد عظيم . . رأسه نحو البحر ..) وهذا الوصف من شاهد عيان زار الجبل والمناطق المحيطة به .

وقد زرت الجبل في صيف عام ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م فرأيت مصداق ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن شكل الأسد العام لا يبعد كثيراً عن شكل « الكلب » فهل هناك علاقة لغوية بين كلب وكالبي Calpe الاسم القديم للجبل ؟

إن دائرة المعارف البريطانية تقول ، إن هناك رواية تذكر ان الفينيقيين في غابر الزمن حينما احتلوا الجبل أطلقوا عليه اسم « كالبي» والفينيقيون في بعض الأقوال

عرب ، أويمتون إلى العرب بسبب ، وإذاً فلايبعد أن يكون الاسم ذا أصل عربي ، وانه اشتق من هذا الشبه بين شكل الصخرة ، وشكل الكلب ، فتكون الصخرة قد شبهت تارة بالأسد ، وتارة بالكلب .

أما تسميته بمعبرة هرقل ، أو هركول ((Hercule)) فيقول صاحب منجد الآداب والعلوم ، إن الأقدمين دعوا « باسمه عواميد هركول ، وهو مضيق جبل طارق ، لاعتبارهم أن المرور منه إلى الأطلسي لا يقوى عليه إلا الجبابرة ، أو أن أعمدة هرقل ، التي كانت قائمة في طرفي المضيق على شاطيء جبل طارق من الجهة الشمالية الأوربية وعلى شاطيء « سبته » أو « أبيلا » من الجهة الجنوبية الافريقية ، كانت تعزى لعظمتها وجبروتها إلى هرقل ، أحد أبطال « الميثولوجيا » الاغريقية .

على أن هذا لا يعدو كونه مجرد استنتاج وكما يطلق اسم جبل طارق على المدينة وعلى المضيق فإنه يطلق أيضاً على الميناء القائم غربي الصخرة ، وعلى الخليج الذي يقوم عليه الميناء .

من هو طارق ؟

هو طارق بن زياد الليثي بالولاء ، أصله من البربر ، قيل أنه أسلم على يد موسى بن نصير ، وقيل بل كان أبوه زياداً مسلماً على عهد عقبة بن نافع فاتح بلاد المغرب .

ولد سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) وكان من رجال موسى بن نصير ، قائد الفتوحات الاسلامية في بلاد البربر ، وفي الأندلس ..

عندما فتح موسى بن نصير طنجة ، ولّى عليها طارق بن زياد ، وكان ذلك سنة ٨٩ هـ ، وظل والياً عليها إلى حين غزو الأندلس في سنة ٩٢ هـ كما سيأتي .

وقد اختلف طارق مع موسى بن نصير ، أثناء فتح الأندلس ، وقيل ان سبب الخلاف ، هو تغلغل طارق في فتوحاته في الأندلس قبل الحصول على موافقة موسى بن نصير ، مما أدى إلى عزله ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك أصلح بينهما ، فعاد طارق من جديد إلى نشاطه.

في الفتوحات .. ولكن الخليفة الأموي عاد فاستدعاهما اليه فقصد الشام سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، حيث يرجح أن طارقاً لم يُوَلَّ بعدها شيئاً من الأعمال .

وقد توفي طارق سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ م) .

استيلاؤه على الجبل :

كان مقر ولاية طارق في طنجة ، بحيث يتطلع الشاطىء الافريقي إلى الشاطيء الأندلسي المقابل ، وكأنما يدعوه إليه . .

وكان لا يزال في الشاطىء الافريقي حصن لم يستول عليه المسلمون بعد ، وهو حصن سبتة الذي يحكمه يُليان ، ويرجح انه مرتبط بالامبراطور البيزنطي ، ولو كان ارتباطاً اسمياً ، بالنظر لضعف الامبراطورية البيزنطية آنذاك وبعدها .

وكان يُليان يمتاز بشخصية قوية حكيمة ، وقد حرص على كسب ود طارق ، وموسى بن نصير ، وعمل على توجيه أنظارهما إلى الشاطيء الاسباني ، لتتجه إليه الفتوحات الاسلامية ، وهو بذلك يحقق أكثر من هدف

فمن أهدافه : شغل نشاط الفتوحات بعالم جديد بعيـــداً عن حصن سبتة

ومنها : ظهوره بمظهر الصديق الناصح المعين ، فقدم خدماته كدليل ، وقدم سفنه كمعين .

ومنها : التخلص من خصمه لذريق ، وقد قيل أيضاً أن يُليان أحب أن يثأر لعرضه ، حيث تقول بعض الروايات أن لذريـــق اعتدى على ابنته التي كانت تعيـــش في قصره ، بل في القصر الذي كان لغيطشة من قبل ، اذ استولى لذريق على الحكم مغتصباً له وقتل غيطشة ، وكانت ابنة يُليان تعيش في كنف غيطشة .. اذ كان يُليان حليفـــه وصديقه

لقد قام يُليان باقناع موسى بن نصير بالاستيلاء على بلاد لذريق ، وأستأذن موسى الخليفة الوليدبن عبد الملك ، الذي تردد أول الأمر خوفاً على المسلمين ، ثم أذن بـــأن يختبر البلاد مبدئياً بسرية صغيرة ، فكانت سرية أبي زرعة طريف بن ملوك (أو مالك) الذي استولى عـــلى جزيرة بالوماس Palomas التي أصبحت تحمل اسمه من بعد Tarifa مما شجع موسى بن نصير على موالاة الحملة ، فأرســـل

رجله القوي طارق بن زياد في جيش مقداره سبعة آلاف رجل ، كانت تنقلهم أربع سفن ليُليان ، في دفعات كلما ذهبت دفعة إلى الشاطيء الاسباني اختبأت ، وهكذا التي تليها في انتظار القائد ثم بدأ الغزو ، وكان معظم رجـــال طارق من البربر إلا قلة من كبار الجند من العرب .

كانت هذه الحملة في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ولكن يختلف المؤرخون في تحديد الشهر الذي تمت فيه ، ولعل الاختلاف يرجع إلى أن انتقال الجنود المسلمين إلى الشاطيء الآخر على مراحل ودفعات متتالية ، وان طارق بن زياد انما وصل إليه في شهر رجب ٩٢ هـ ، حيث تجمع الجيش الذي أصبح ١٢٠٠٠ رجل ، بعد أن أمده موسى بن نصير ، بمدد اضافي .

وهناك خطب طارق يحمس الجيش المسلم على القتال والصبر والجلد ، حيث ذكّرهم ان العدو أمامهم والبحر خلفهم ، فليس ثمة سفن تمكنهم من الانسحاب (١) .

---

١ ـ كنت اميل فى الطبعة الاولى الى قصة احراق السفن من قبل طارق ، ولكن الصديق الاستاذ الجليل محمد سعيد العامودى لفت نظرى الى ضعف هذه القصة ، وبعد حوار ومراجعة ، ترجح عندى ان المعقـــول هو ان يليان استعاد سفنه ، فلم يعد للجيش المسلم الا ان يثبت فى القتال ، حيث انعدم خط الرجعة ، وقد بحث الموضوع صاحب كتاب (فجر الاندلس) ولقد اورد ـ

وقد استولى طارق على الجبل والشاطىء المحيط به وسارع إلى تحصينه، وتقول دائرة المعارف البريطانية: ـ انه وصل في أواخر يوليه من سنة ٧١١ م وقوّض دعائم الاستحكامات والقوى القوطية خلال قتال دام ثلاثة أيام على ضفتي نهر غواوليت الذي توجد بالقرب منه الآن ضاحية جيرز دى لافرو نتيرا ، وأمر ببناء قلعة على الصخرة التي كانت تحمل اسم مونت كالبه ، وقد بدأ بناؤها من سنة ٧١١ م ، ولكنها لم تنته الا سنة ٧٤٢ م ، وانهااشتملت على مساحة تصل من شاطىء الخليج إلى نقطة واقعة في منتصف الطريق المؤدية إلى منحدر الصخرة من الجهة الشمالية الغربية ، وان هذا الحصن عبارة عن برج مربع عظيم باق إلى الآن يعرف باسم القلعة المراكشية أو المغربية اﻫ

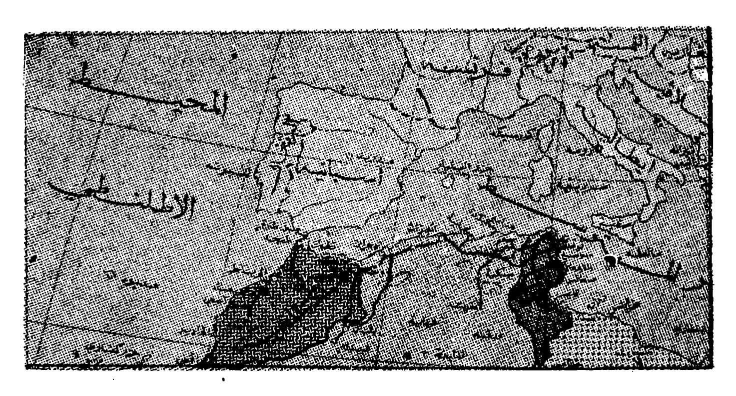
ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٧ ـ ٢٥٧ ﻫ) فى تاريخه نصا يدل سياقه على ان السفن رجعت لصاحبها يليان ، فهو يقول « فلما امسى جاءه يليان بالمراكب فحمله فيها الى ذلك المجاز ، فاكمن فيه نهاره ، فلما امسى رد المراكب الى من بقى من اصحابه ، فحملوا اليه حتى لم يبق منهم احد ، ولا يشعر بهم اهل الاندلس ،ولا يظنون الا ان المراكب تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ، وكان طارق فى آخر فوج ركب ، فجاز الى اصحابه ، وتخلف يليان ومن كان معه من التجار بالخضراء الخ » .

والمرجح ان الحصن القائم الآن من بناء الموحدين كما سأوضح ذلك .

ثم أخذ طارق يوالي فتوحاته في بلاد الأندلس ، ولحقه موسى بن نصير ، حيث تعاونا على الفتح ، وذلك قبل أن يدب الخلف بينهما .

م-٢

استراتيجية (جبل طارق)



والمتأمل لخريطة منطقة جبل طارق ، يلمس أن اختيار العرب جزيرة «طريف» أولا ، ثم جبل طارق ثانياً ، لبدء محاولاتهم في فتح الأندلس ، كان اختياراً طبيعياً لاقتراب هذين الموضعين من الشاطىء الافريقي ، حتى لكأنّ هذين اللسانين يحاولان الإتصال بالبر الافريقي .. ولا يستبعد احتمال كونهما كانا متصلين به في غابر الأزمان . كما يقول بذلك علماء الجيولوجيا حيث يقدّرون أن الأرض هناك ظلّت متصلة مئات الآلاف من السنين .

وقد كان هذان الموضعان دائماً جسراً للفاتحين عبر الأزمنـــة .

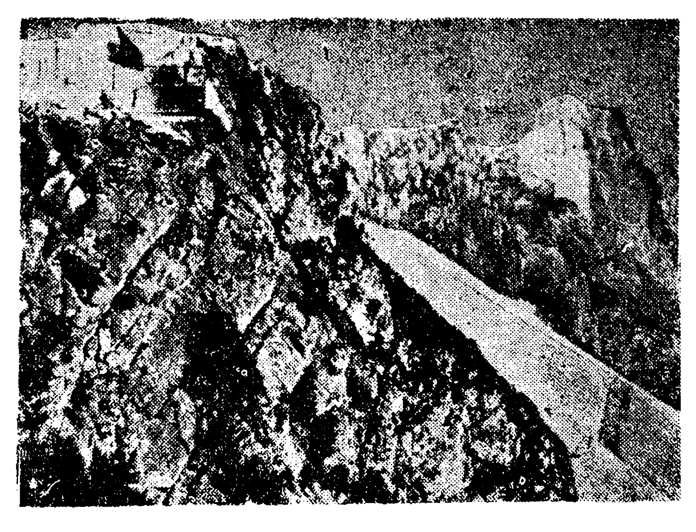
وروى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بـ « شيخ الربوة » (٦٥٤ — ٧٢٧ هـ) في كتابه « تحفة الدهر في عجائب البر والبحر » إن المؤرخين زعموا أن الإسكندر حفر الزقاق وأجراه من المحيط ليغرق به أهل الأندلس والبربر ، وأهل بر العدوة والإسبان ، ليمنعهم من غارات بعضهم على بعض ، وزعم آخرون أنه لم يحفره ،ولكنه أراد أن يعمر عليه جسراً من قناطر ففعل ذلك ، ثم إن البحر طما وزاد، وغطاها .. وأنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عند سكون الريح ، وهدوء الموج ، ونقص مده وجزره . »

ثم وصف المؤلف عرض الزقاق ، فقال انه ثمانية عشر ميلا (الآن) وأن الجسر الذي بناه الإسكندر في أضيق مكان أمكنه البناء هو أربعة آلاف خطوة وذلك طول ميل واحد .

ثم وصف القناطر والجسوز ، وان الإسكندر استعان في بنائها بفكرة المراكب المتصلة المقيدة بسلاسل .. كل ذلك في وصف شائق (١)

---

١ ـ ص ١٣٦ وما بعدها من (تحفة الدهر) .



قمة الجبل والى يسارها خزان للمياه

أما صاحب نفح الطيب « أحمد بن محمد المقّـري المتوفي عام ١٠٤١ هـ فيقول في الباب الأول من كتابه في وصف بلاد الأندلس(ص ٣٣)عن قصةالاسكندرما نصه: « وقال غير واحد منا ؤرخين ؛ كان أهل المغرب الأقصى يُضرون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، إلى أن اجتاز بهم الاسكندر ، فشكوا حالهم اليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح المـاء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحـل البحر الشامي ونقلها من الحضيض إلى أعلى ، ثم أمر بحفر مابين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً وجعل طوله اثنى عشر ميلا وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحيـة طنجة ، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فم الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين، وطفا

الماء على الرصيفين احدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فانه يظهر في بعض الأوقات اذا نقص الماء ظهوراً بيناً مستقيما على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي من جهة العُدوة فان الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثنى عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبتة وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما ، والجزيرة الخضراء ،وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر . انتهى ملخصاً » .

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي ، في تعليقه على كتاب « المن بالامامة » لابن صاحب الصلاة : ان رصيف الاسكندر الذي يمتد من طنجة إلى ساحل الأندلس قد تهدم قبل الفتح الاسلامي بمائتي سنة . اهـ

ومن مجموع هذه الأوصاف يسهل أن نتصور ان هناك رصيفين كانا متقابلين ، أحدهما على الشاطىء الافريقي ، والآخر على الشاطىء الأوروبي ، وصل بينهما بقناطر من المراكب المشدودة على كل من الرصيفين.

بسلاسل قوية .. وان الأحداث والأزمان المتعاقبة ذهبت بتلك القناطر ، وان ظلت هناك آثار للرصيف والسلاسل تتكشف بالجزر الشديد ، كما حدثنا بذلك شيخ الربوة .

بل لقد صرح بذلك المسعودي (ت ٣٤٦) في مروج الذهب (ص ٣٤٨ من الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)، وذلك في سياق قصة العالم المعمر القبطي ، الذي أحضره لابن طولون ، ووجهت اليه اسئلة عدة ، كان يتولى الإجابة عليها ، قال :

« وقد كان بين الأندلس ، وبين الموضع الذى يسمى الخضراء ، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ، قنطرة مبنية بالحجارة ولطوب ، تمر عليها الأبل والدواب من بلاد الأندلس إلى المغرب ، وماء البحر تحت تلك القنطرة ، متقطع خلجانات صغاراً تجري تحت قناطرها ، وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل حجر إلى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من اوقيانوس ، وهو بحر المحيط الأكبر فلم يزل البحر يزيد ماؤه ، ويعلو ارضا فأرضاً في طول ممر السنين ، يرى

زيادته أهل كل زمان ، وتبينه اهل كل عصر ويقفون عليه حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش وبين قبرس ، وعلا القنطرة التي كانت بين الاندلس وبر طنجة وما وصفت فبين ظاهر ، عند أهل الاندلس ، واهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا الموضع لاهل المراكب تحت الماء فيقولون : هذه القنطرة . وكان طولها نحو اثنى عشر ميلاً في عرض واسع ، وسمو بيّن ، فلما مضت لديقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع .. الخ . »

وهكذا نرى ان أمر القنطرة وارد ومحتمل ولا ارى تعارضاً بين ماذكره « شيخ الربوة » من الاستعانة بفكرة المراكب المتصلة والمقيدة بالسلاسل ، وبين ما ذكره المسعودي ، من ان بناء الطاقات كان بالحجر والصخور الصماء .. فانى اتصور ان الطاقات الحجرية ، انما بنيت على الساحل الضحل من كل جانب من الجانبين المتقابلين .. حتى اذا تعذر البناء في الوسط حيث الاعماق البعيدة ،

استعين بفكرة المراكب المتصلة المقيدة بالسلاسل .

والسؤال الذي يتبادر الآن إلى الذهن ، والذي يظل الجواب عليه غامضاً هو : هل ثمة صلة بين أعمدة هرقل ، وبين أرصفة الاسكندر ؟

وسواء أكان المضيق متصلا ، وأن الأيدي البشرية هي التي حفرته ليتصل البحران فيكون في ذلك نفع كبير للملاحة البحرية ، كما هو عليه الحال في قناة السويس ، أو أن البحرين كانا منفصلين ، وأن الجهود البشرية كانت تحاول وصلهما بعمل قناطر وجسور تحقق الهدفين معاً - اتصال البحرين واتصال البرين معاً ، مثل المحاولات التي تبذل الآن لوصل ساحليّ بحر المانش بين فرنسا وبريطانيا ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فإننا نكتفي بهذه الدلالة على أهمية المنطقة وحيويتها في وصل قارة أوروبا بافريقيا ، وفي وصل البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) بالمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) .

ولا شك أن مضيق جبل طارق يعتبر أضيق نقطة تلاق بين أوروبا وافريقيا ، ولايزيد عرضه عند أضيق نقطة

منه عن تسعة أميال بينما يبلغ عرضه في أكثر نقطة اتساعاً أربعة وعشرين ميلا ، وبالإمكان رؤية الصخرة من شاطى سبتة الافريقي ، وإن كانت تبدو منه كالغمام القاتم (١) .

وإذا كان (شيخ الربوة) قد روى أن الإسكندر حفر الزقاق أو عمر عليه جسوراً ، مما سلفت الإشارة إليه ، فإن لصاحب معجم البلدان رواية أخرى ، فهو يحدثنا في مادة (بحار – بحر المغرب) في الجزء الأول من كتابه بما يلي :

« .. وقرأت في غير كتاب من أخبار مصر والمغرب ، أنه ملك ، بعد هلاك الفراعنة ، ملوك من بني دلوكة ، منهم دركون بن قلوطي وزمطرة ، وكانا من ذوي الرأي والكيد والقوة ، فأراد الروم مغالبتهما على أرضهما ، وانتزاع الملك منهما ، فاحتالا بأن فتقا البحر المحيط من المغرب ،وهو بحر الظلمات فغلب على كثير من البلدان العامرة ، وامتد

---

١ – الاثار الاندلسية الباقية للاستاذ محمد عبد الله عنان . وقد حاولت ان اشاهد الجبل من ساحل طنجة ، ولكن الغمام كان يحول دون ذلك ، وقد حدثني من اثق به من اهل طنجة انهم يرونه اذا صفا الجو .

إلى الشام وبلاد الروم ، وصار حاجزاً بين بلاد الروم ، وبلاد مصر » .

وتجرنا هذه الحكايات التي تروى عن مضيق جبل طارق ، إلى أسطورة الطلسم الذي قيل انه وجد عند فتح الأندلس ، كما تذكرنا أيضاً بما جاء في كتاب « ألف ليلة وليلة » عن جبل المغناطيس ، وبالكنوز التي وجدها طارق وموسى بن نصير في الأندلس ، وعما يروى أيضاً عن قارة الأطلانطيد ، وما يحوم حولها من قصص .. ولشد ما تختلط بعض الحقائق أحياناً بالأساطير اختلاطاً يقف منه العقل البشري موقف المتحير !

جغرافيته وتاريخه

يتألف جبل طارق من كلس جوراسي ويبلغ طوله ٥ر٤ كيو متر، وعرضه ٢ ر ١ كيلو متر ،وارتفاعه٤٢٩متراً كما يبلغ تعداد سكانه حوالي ثلاثين ألفاً ، وهم خليط من الإسبان والإنجليز ، وبعض العرب المراكشيين . ويدخل ضمن هذا العدد ، الحامية الإنجليزية التي تبلغ حوالي السبعة آلاف .

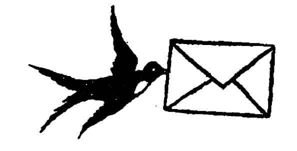
وقد استولت بريطانيا على الجبل في سنة(١١١٦هـ-١٧٠٤م) ويربط شبه جزيرة طارق بسائر إيبيريا أو بإسبانيا ، منطقة محايدة ، تتألف من سهل رملي ، وتمتد بجوار الصخرة نحو سبعمائة متر ، ويبلغ عرضها نحو أربعمائه متر(١) ، وتشكل هذه المنطقة المعبر الذي يصل عن طريقه الآن تموين الجبل باحتياجاته كما يصل عن طريقه العاملون في الميناء من الإسبان الذين يعودون في المساء إلى الأرض الإسبانية .

١ - الآثار الاندلسية الباقية : لمحمد عبد الله عنان .



منظر للجبل وهو مطل على اسبانيا من الشمال

ولقد ظلت سيطرة المسلمين على الجبل ممتدة لما يزيد على سبعمائة عام، فقد خسروه بصفة نهائية سنة (٨٩٨هـ ١٤٩٢م) حيث استولى عليه الإسبان ، بعد عدة محاولات وحملات.



في عهد الموحدين

سبق أن أشرت إلى أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن ابن علي أطلق اسماً جديداً على الجبل هو: « جبل الفتح » وان هذا الاسم حظي ببعض الذيوع في العهد الموحدي وبعده .

لقد قام هذا الخليفة بدور عمراني هام ، بالنسبة لتاريخ جبل طارق في عهده الإسلامي ، ولعل خير من أرخ لهذه الفترة من تاريخ الجبل « عبد الملك بن صاحب الصلاة » (٥٩٤ هـ — ١١٩٨ م) في كتابه « تاريخ المنّ بالامامة » ، الذي حققه الدكتور « عبد الهادي التازي » وزوده بكثير من الهوامش القيمة المفيدة .

ولقد اتيح لمؤلف (المن بالامامة) ، أن يعاصر عمران الجبل في عهد الموحدين ، ووصف ذلك العمران وصفاً دقيقاً مسهباً تضافرت فيه الرواية والمشاهدة معاً ، ويذكر في ذلك أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ، أمر بإنشاء مدينة كبرى في جبل طارق ، لتكون قاعدة له ولجنده للعبور إلى

الأندلس ، وكلّف ابنه أبا سعيد عثمان بالمسير من غرناطة إلى جبل طارق ، واستنفر لأجل ذلك أشهر البنائين والمهندسين ، وفي مقدمتهم الحاج «يعيش المالقي» ، وهو مهندس شهير فنان اشتهر بإبداعه ، والعريف « أحمد بن باسه » وهو يعتبر أحد كبار الخبراء في الأعمال المعماريه وكان الموحدون يعتمدون عليه في مشاريعهم . (ص ١٤٠ من كتاب المن بالامامة وما بعدها) .

يقول ابن صاحب الصلاة : « وأحكم البناؤون فيه بناء القصور المشيدة والديار ، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور ، مما هو عجيب في الآثار ! »

ثم استطرد يصف الجبل فقال :

« وجبل طارق هذا شريف البقعة ، كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعنان السماء ، يكاد في إلمامته يصل إلى الجوزاء ، وكل ما استودع من البطحة المنبسطة من بعضه نما وزكا وفضل ، وجل وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل ، واستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح

والكمثرى ، والسفرجل ، والمشمش والأجاص ، والأترج والموز وغير ذلك على ضيق ضفته الممتدة من الجبـــل ، المستمدة من الطل والوبل ، وماؤه عــذب زلال ، مروق سلسال » .

ثم ذكر الطاحونة الهوائية التي عملها الحاج « يعيش » فقـــال :

« .. وكان الحاج « يعيش » المهندس ، مدة إقامتـــه للبناء على ما ذكرته فيه ، قد صنع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراكش عند إكمال ما أمـــر به ، فسدت الرحى لعدم الإهتبال بها .. »

ثم استمر يصف البناء :

« واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء السور ، والباب المسمى بباب الفتوح ... » .

وبعد أن أنجز العمران الضخم الذي أمر به الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ، عبر البحر من سبتة ،ليشهد

ذلك العمران ويحتفل به ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥ هـ .(١١٦٠ م)

وقد كان احتفاله بإنجاز هذا العمل العظيم احتفـــالاً مشهوداً تبارى فيه الشعراء والخطباء .. وكان من شعراء ذلك اليوم أبو بكر ابن المنخل الشلبي ، وأبو العباس أحمد ابن سعيد الاشبيلي المسمى « باللص »،والشاعر المعــروف « بالطليق » ، وأبو الحسين عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي ، ومحمد بن حبوس الفاسي ، وأبو عبد الله الرصافي ، وأبو جعفر بن سعيد العنسي ، وأبـــو العباس الجراوي (١) .

وقد ذهب الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه القيم « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » في هامش الصفحة ٦٨٦ إلى أن ابن صاحب الصلاة ، مؤلف كتاب « المن بالامامة » كان من شهود هذا الحفل وهو وهم ، فليس في كتاب المن بالامامة ما يدل على اشتراكه في هذا لحفل .. فقد قال بعد أن أتى على ذكر بعض قصائـــد الشعراء الذين ألقوا قصائدهم فيه ، مانصه :

---

١ – ابن صاحب الصلاة ، والمعجب للمراكشي .

« حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هارون قـال : كنت واحداً من جميع الوفد الذين بادروا بقصدهم ووفدهم مع أهل إشبيلية ، ومن كان تحت طاعة التوحيد من أهل الأندلس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه بجبل طارق ، وأقمنا معه نحو عشرين يوماً ... الخ » .

ولم يكن ابن صاحب الصلاة في حاجة إلى مثل هذه الرواية لو حضر الحفل .. ولعل الوهم أتى من أنه حضر فعلاً حفلاً آخر أقيم في الجبل نفسه ، ولكن في غير عهد الخليفة عبد المؤمن .

ولعل هذا الوهم قد اتى أيضاً من أنه كان من بين شعراء حفل الخليفة عبد المؤمن ، شاعر يحمل لقب صاحب الصلاة هو أبو الحسين عبيـد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي وهو غير صاحبنا ، وقد مرّ ذكره .

ويدل السياق الذي يصف فيه صاحب« المن بالامامة » حفل الخليفة عبد المؤمن ، على اعتماده على الروايـة لا المشاهدة ، فهو يقول بعد إيراده قصيدة الشاعر المعروف « باللص » التي مطلعها :

غمّض عن الشمس واستقصر مدى زحل

وانظر إلى الجبل الراسي على جبـل

يستمر في سرد الوصف فيقول :

« قال الرواية : لما أنشد المنشد هذه القصيدة أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر « غمض عن الشمس » وقال على مسمع من الناس « غمّض .. غمّض » منكراً لها ، ، لأنه كان يحب الفأل الحسن ، لكنه أمر له بعشرة دنانير كما أمر لكل شاعر » .

هذا عدا عن أن ابن صاحب الصلاة يلتزم الدقة في أقواله فهو حينما نزل بجبل طارق فيما بعد على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قال : « كنت من جملة الواردين » فلو حضر الحفل الأول لذكر ذلك مصرحاً به ، ولم يقل قال الراوي .

وللحفل الآخر صلة لما آل إليه الأمر بعد وفاة الخليفة عبد المؤمن ،وبعد أن تولى الخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف وظلت الوزارة والسلطة في يد أخيه أبي حفص . فقد خرج ابن صاحب الصلاة إلى الأندلس ، مرافقاً لمركب أبي حفص حينما عبر للقاء أخيه أبي سعيد في جبل طارق ، بقصد إزالة الخلاف الناشب حول الخلافة بعد الخليفة عبد المؤمن ، وقد قصد أبو حفص أن يجمع الكلمة لأخيه أبي يعقوب

يوسف ، وقد احتفى أبو حفص بعودة أخيه أبي سعيد إلى حظيرة الولاء فوزع الأعطيات ، وتقبل التهاني ، وتنافس الشعراء في التهنئة بهذه المناسبة ، ومن بينهم أبو عمرو بن حربون ، الذي أنشد قصيدة دالية مطلعها :

قد حصحص الحق لا ريب ولا فند
هذي الفتوح التي كانوا بها وعدوا

وهي التي يقول فيها :

أنظر إلى مجمع البحرين كيف حوى
من الفضائل ما لم يحوه بلد

وفي هذه الرحلة شارك مؤلف كتاب « المن بالامامة » في سوق الشعراء ، فألقى أبياتاً ، ولكنه لم يذكر منها شيئاً في كتابه ، كما أنه لم يذكر شيئاً عن مشاهداته في الجبل ، ولعله اكتفى بما سبق أن أورد من وصف في مناسبة احتفال الخليفة عبد المؤمن عند بناء المدينة العظيمة في الجبل .

آثــار

ويحدثنا الأستاذ « محمد عبد الله عنان » في كتابه القيم « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » أن هناك بقايا الحصن الأندلسي أو القصر الأندلسي أو المغربي Moorish Castle وأنه عبارة عن قلعة حصينة ، تقوم فوق ربوة عالية ، تقع على مقربة من الطرف الشمالي الغربي للصخرة ، ومن تحتها سراديب وعقود عربية ، وأنه يدل تخطيط القلعة وحافاتها على أنها قد ترجع إلى عهد الموحدين مشيراً إلى ما بناه الخليفة عبد المؤمن ، كما مرّ ذكره . ولكنه يعود فيقول أن بعض الأثريين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية ، وأنها قد أنشئت فيما يبدو في عصر السلطان يوسف أبي الحجاج في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، بل إنه يعزو هذا الرأي إلى الأستاذ « توريس بالياس » في مقال له عن جبل طارق في مجلة الأندلس ، ويضيف الأستاذ عنان قائلاً ، إن المرجح أن هذا البناء قد أقيم على أنقاض القلعة الأندلسية القديمة ،

التي أقيمت منذ الفتح ، كما يذكر بعض الآثار الأخرى كالحمامات العربية ، والأسوار الأندلسية ، ولكنه لايجزم بأشياء يقينية معزوّة إلى مؤسسيها ، إذ يبدو أنه لم تعد هناك نقوش أو خطوط توضح ذلك بصفة جازمة .

ولقد اتيح لي أن ازور القلعة المراكشية ، في صيف سنة ١٣٩٢ هـ ، وتجولت في ارجائها ، وسراديبها .. وترجح لدى انها من بناء الموحدين ، فلقد شاهدت في سطوحها قاعدة ، اتخذت اليوم ، للعلم البريطاني ، أحسبها هي التي كانت قاعدة طاحونة الهواء التي عملها المهندس « يعيش » واشاد بها ابن صاحب الصلاة ..

وفي جبل طارق متحف لآثاره ، ولكن القسم الصغير المخصص للآثار العربية ، في هذا المتحف لايعطي فكرة واضحة عن الحضارة العربية خلال فترة حكم العرب للجبل .

أهم المراجع

* محمد عبد الله عنان :

« الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال » .

* عبد الملك بن صاحب الصلاة .

« تاريخ المن بالامامة » . تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي .

* شيخ الربوة : شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي :

« نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » .

* عبد الواحد المراكشي :

« المعجب في تلخيص أخبار المغرب » .

* دائرة المعارف البريطانية .

* ياقوت الحموي :

« معجم البلدان » .

* الدكتور حسين مؤنس :

« فجر الأندلس »

* منجد الآداب والعلوم

* دائرة المعارف الاسلامية

الفهـرس

صفحة

صدر من هذه السلسلة

١ – توثيق الارتباط بالتراث العربي « طبع للمرة الخامسة »

عبد العزيز الرفاعي

٢ – جبل طارق والعرب « طبع للمرة الرابعة » له

٣ – خمسة أيام في ماليزيا طبع للمرة الثانية «

٤ – كعب بن مالك الصحابي الأديب «

طبع للمرة الثالثة له

٥ – أبو محمد البطال طبع للمرة الثالثة يحيى ساعاتي

٦ – أم عمارة طبع للمرة الثالثة

عبد العزيز الرفاعي

٧ – أبو دلف طبع للمرة الثالثة د. محمد عبد المنعم

خفاجي

٨ – قصائد من مقبل العيسى

٩ – من عبد الحميد الكاتب عبد العزيز الرفاعي

طبع للمرة الثانية

١٠ ـ قريتي الخضراء قصة شعرية للاستاذ احمد قنديل

١١ ـ كرائم النساء طبع للمرة الثانية للاستاذ احمد جمال

١٢ ـ الغزو الفكري « « « للاستاذ عبدالله عبد الجبار

١٣ ـ بنو الاثير « « « للاستاذ محمد بن حمدان

١٤ ـ اطياف من الماضي شعر للاستاذ محمد عبد القادر فقيه

١٥ ـ من أجل الشباب طبع للمرة الثانية للاستاذ احمد جمال

١٦ ـ الحج في الادب العربي « « « للاستاذ عبد العزيز الرفاعي

١٧ ـ من امهات الكتب « « « للاستاذ العوضي الوكيل

١٨ ـ سوق عكاظ للاستاذ علي حافظ

المكتبة الصغيرة

يصدرها : عبد العزيز الرفاعي

تهدف هذه المكتبة إلى تيسير المعرفة ، في عرض موجز يكفل الافادة والتنوع ، ولا يورث الملل ، وهي إلى ذلك أقرب ما تكون إلى روح العصر العجل السريع .

كتيباتها خفيفة المحمل ، زهيدة الثمن ، ميسرة الأسلوب .

روعي في اعدادها أن تكون صالحة لمختلف الأجيال ، ومختلف المستويات الثقافية .

وقد بدأت هذه السلسلة بتقديم بحث عن توثيق الارتباط بالتراث العربي ، تلاه بحث تاريخي جغرافي عن جبل طارق وعلاقته بالعرب ، ثم قدمت المكتبة الحلقة الثالثة وهي سطور من أدب الرحلات .

وكانت الحلقة الرابعة دراسة عن الصحابي الشاعر الأديب « كعب بن مالك » .

أما الحلقة الخامسة فهي رسالة عن البطل المسلم :

« أبو محمد البطال » .

والحلقة السادسة دراسة عن أم عمـــاره الصحابية الباسلة

وكتب الحلقة السابعة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي عن « أبو دلف » عبقري من ينبع .

وجاءت الحلقة الثامنة إضمامة من الشعر الرقيق للشاعر الاستاذ مقبل العيسى .

أما الحلقة التاسعة فكتيب « من عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب والموظفين » من إعداد عبد العزيز الرفاعي .

أمـا الكتيب العاشر ، فقصة شعرية رائعـــة للشاعر الكبير الاستاذ أحمد قنديل .

والكتاب الحادي عشر « كرائم النساء » تراجم موجزة لشهيرات النسوة المسلمات للكاتب الاسلامي الكبير أحمـــد محمد جمال .

ويعني الكتاب الثاني عشر ، باستمراهن محاولات « الغزو الفكري » وهو لاستاذ الجيل عبد الله عبد الجبار .

والكتاب الثالث عشر (بنوالاثير) دراسة للاخـــوة الثلاثة فرسان التأليف في التراث العربي للاستاذ الباحث محمد ابن حمدان .

أما الكتاب الرابع عشر فديوان شعري رقيق للشاعر الوجداني الاستاذ « محمد عبد القادر فقية » .

ويقدم الاستاذ احمد جمال ، الكاتب الاسلامي الشهير ، توجيهات سديدة هادفة « من أجل الشباب » وذلك في الحلقة الخامسة عشر .

وفي الحلقة السادسة العشرة يقـــدم صاحب السلسلة عبد العزيز الرفاعي كتيبه « الحج في الادب العربي » .

أما الكتاب السابع عشر ، فهو للكاتب المصري الكبير « العوضي الوكيل » وهو عن امهات الكتب العربية

وفي الكتاب الثامن عشر يقدم الكاتب السعودي الكبير السيد « على حافظ » دراسة تاريخية موجزة عن « ســـوق عكاظ » .

تطلب هذه السلسلة من :

مكتبة الرياض الحديثة في الرياض شارع البطحاء

مكتبة الثقافة في مكـــــة المكرمـــــة

مكتبة دار الشروق في جـــده

مكتبة المؤيد في الطائـــــف

للاتصال بالمكتبة الصغيرة

الرياض

ص.ب ١٩٥٠

المكتبة الصغيرة

ترمى هذه المكتبة الى تيسير المعـــرفة ، فى عرض موجز ، يكفل الافادة ، ولا يـــورث الملل ، ولعلهـــا أدنى الى روح هذا العصر العاجل ..

وتهـــدف الى تقـديم ألوان من الثقافة ، فيهـــا البحث ، والدراسة ، والرحلات الخ .

« جبل طارق »

انه وان مثل نقطة انطلاق الفتح العربى الاســـلامى الى الاندلس ، فقد مثل من جانب حضارى ، البوابة الرئيســـية الكبرى التى نفذت منها الحضارة العربية الاسلامية بكل اشراقاتها الروحية والفكرية ، حيث قعدت أوروبا هناك مقعد التلميذ من الاساتذة المســـلمين ، فنقلت عنهم الطب والفلك والفلســـفة وغيرها من العلوم ، وفتحـــوا أمامها آفاقا جـديدة من العلم والمعرفة ..

مطبعة المدينة . الرياض . شارع الملك فيصل . تلفون ٢٦٢٠٦ MP